جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية
Naif Arab University For Security Sciences

اثر الايمان في بناء الشخصية

الدكتور التهامي نقرة

الرياض

1413 هـ - 1993 م

أثر الايمان في بناء الشخصية(*)

الدكتور التهامي نقره

منهج العقيدة الاسلامية:

العقيدة هي اللّبنة الأساسية في بناء الشخصية، وعنها ينبثق الشعور والتطور ونمط السلوك، وليست مجرد معرفة ثقافية لما لها من وثيق الارتباط بالجوانب الفكرية والعاطفية والخلقية والفعلية التي تكيف نشاط الانسان في شتى ميادين الحياة ـ فردياً كان أو اجتماعياً ـ حيث يعيش صاحب العقيدة معتقداته، ويترجم عليها باعماله في تصرفاته وفي علاقاته بربه وبالناس وبالكون الذي يعيش فيه.

ومنشأ الاختلاف بين الناس في أنماط حياتهم، وعقلياتهم وتصوراتهم هو اختلافهم في العقيدة التي شبّوا عليها وتأثروا وعملوا بها.

وللعقيدة الاسلامية منهج متميز يقوم على التوحيد الخالص الذي دعا اليه كل المرسلين، ويحترم طبائع الأشياء لأنه دين الفطرة التي فطر الناس عليها، ولا يفصل بين العمل للدنيا والعمل للآخرة ولا بين العبادة والأخلاق ولا بين صادق الايمان وصالح الأعمال.

فهي متصلة بنظام الاسلام الشامل الذي تنبني عليه النظرة

(*) ألقيت هذه المحاضرة بمقر المركز بالرياض بتاريخ ١٤٠٦/٥/٥هـ الموافق ١٩٨٦/١/١٥م.

الأخلاقية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية والتشريعية وهي الأساس الفكري لعقلية المسلم، والأساس النفسي لسلوكه وهي منطلق السير ومنبع المبادىء ومصدر القيم، ومبعث الطاقات البشرية.

ولتأثير العقيدة في الحياة الاسلامية نراها تتخلل جميع سور القرآن وتحيط بجميع أحكام الاسلام ـ أخلاقيات كانت أو تشريعية ـ لأنها لو تجردت منها لتعطل الجهاز المحرك عن حركته، وأفقدته روحه وحيويته، وقطعت شرايينه وأعصابه.

أما هذه الأحكام الاسلامية فتشمل العبادة التي تُذكي شعلة العقيدة وتشعر المؤمن بموقعه من خالقه، وتشمل الأخلاق التي تهذب النفس وقواعد السلوك التي تضبط خط السير وتحدد العلاقات، والسمو الروحي الذي جعله الاسلام هدفاً يسعى المسلم لبلوغه.

كما تشمل النظام الاجتماعي الذي يتضمن أحكام الأسرة ووظيفة أفرادها وعلاقات بعضهم ببعض، وأسس التكافل والتضامن بين أفراد المجتمع، والنظام الاقتصادي الذي يحدد طرق الكسب والانفاق ومفهوم الملكية وقيودها، وحقوق الناس وواجباتهم في شئون المال والتصرف.

والنظام السياسي الذي يحدد العلاقة بين الراعي والرعية وحقوق المواطنين في الدولة سواء كانوا مسلمين أو غير مسلمين،

وقواعد السلم والحرب، وعلاقة الدولة بغيرها من الدول[1].

فقد ارتبطت كل هذه الأحكام بالعقيدة ارتباط الروح بالجسد، لتكون لها حياة عند التطبيق ولا تبقى أعمالا آلية أو طقوساً جامدة لا تثير المشاعر، ولا توقظ الضمائر، ذلك أن علوم الكون والحياة والبحث المتواصل في ملكوت السموات والأرض لا تقل خطراً عن علوم الدين، فالحاجز بينهما رقيق جداً بحسب سلامة القصد ونبل الغاية، وعلوم الحياة مساوية لعلوم الآخرة في خدمة هذا الدين وتجلية حقائقه، ولكن مع الايمان.

قال الله تعالى: ﴿قل أنظروا ماذا في السماوات والأرض وما تُغني الآيات والنُّذر عن قوم لا يؤمنون﴾[2].

فالحقيقة التي يستعرضها الانسان لا تتحول من فكرة الى شعور، ولا يترجم عنها الشعور بالسلوك، ولا تستقبلها الأجهزة التي تحوِّلها الى قوة وحرارة ونماء الا بالايمان، والآيات الدالة على وحدانية الله وقدرته كثيرة مبثوثة في الكون، معروضة للابصار والبصائر في السماوات وفي الأرض، ولكن يمر عليها التائهون الضالون صباح مساء فلا يرونها ولا يسمعون نداءها، ولا يحسون ايقاعها العميق، ولا ينتبهون اليها ولا يدركون مدلولها، لأن الايمان الخالص يحتاج الى يقظة دائمة تنفي عن القلب كل خالجة شيطانية، وتذكر بكل اعتبار

---

١ ـ المبارك، محمد. نظام الاسلام. العقيدة والعبادة. بيروت ١٩٧٣م. ص ٣٠.

٢ ـ سورة يونس. الآية: ١٠١.

من اعتبارات هذه الأرض في حركتها وسكونها لتكون كلها لله خالصة له دون سواه.

﴿وكأين من آية في السماوات والأرض يمرُّون عليها وهم عنها معرضون﴾[1].

إن لحظة تأمل في مطلع الشمس ومغيبها، لحظة تأمل في الظل الممدود ينقص بلطف أو يزيد، لحظة تأمل في الخضم الزاخر والنبع الروي والعين الفوارة، لحظة تأمل في النبقة النامية والبرعم الناعم، والزهرة المتفتحة والحصيد الهشيم،لحظة تأمل في الطائر السابح في الفضاء والسمك السابح في الماء والدود السارب، والنمل الدائب، وسائر الحشود والأمم من الحيوان والحشرات والهوام . . لحظة تأمل في هدأة الليل يتسمَّع فيها القلب البشري الى ايقاعات هذا الوجود العجيب، لكافية لارتعاشه بقشعريرة الادراك الرهيب، والتأثر المستجيب . .

وقد كان النبي «ﷺ» حريصاً على ايمان قومه، رغبة في ايصال الخير الذي جاء به اليهم ورحمة لهم مما ينتظر المشركين والشرك أخفى من دبيب النمل، ولكن الله العليم بقلوب البشر، الخبير بطبائعهم وأحوالهم يُنهى اليه أن حرصه على ايمانهم لن يسوق الكثرة الى الايمان، لأنهم يمرون على الآيات الكثيرة معرضين وهذا الاعراض لا يؤهلهم للايمان ولا يجعلهم ينتفعون بدلائله المبثوثة في الآفاق، وأن

---

١ - سورة يوسف الآية: ١٠٥.

شأنهم في الاعراض عنها لعجيب، وهي تبذل لهم بدون أجر ولا مقابل[1]:

﴿وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين﴾[2].

﴿وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون﴾[3].

فالتفكر في خلق السموات والأرض وفي أنفسنا ـ كما طالبنا بذلك القرآن الكريم ـ لا ينفع غير المؤمنين، لأنه عبادة وعبادة الله منزلة لا يرقى اليها المفسدون والمجرمون وأحلاس الشهوات، وعشاق العلو في الأرض والكِبر على الخلق، والمغرمون بحظوظ النفس ورغبات العاجلة، والذاهلون وراء مطالب العيش، الذين يعرفون المادة وحدها ويجهلون ما وراءها.

ومنهم أولئك الذين يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة غافلون.

لقد صنعت عاد حضارة رائعة، وناهيك بمدينة شيّدوها، وبلغ من فخامتها أن القرآن وصفها بكونها ﴿لم يخلق مثلها في البلاد﴾، وعندما تتأمل قوله تعالى يخاطب عاداً، على لسان نبيهم هود عليه السلام: ﴿أتبنون بكل ريع آية تعبثون * وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون * وإذا بطشتم بطشتم جبارين * فاتقوا الله وأطيعون * واتقوا الذي أمدكم بما تعلمون * أمدكم بأنعام وبنين * وجنات

---

١ ـ قطب، سيد. في ظلال القرآن. ١٣/٣٠. الطبعة الأولى مصر

٢ ـ سورة يوسف الآية: ١٠٣

٣ ـ سورة يونس. الآية. ١٠١.

وعيون * إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم﴾[1].

فنحن نحس بأن تلك الحضارة تجمع بين الزراعة والصناعة والعمارة، وتتجلى عناصرها في هندسة المباني واقامة المصانع وإنشاء المدن، على نحو يثير الاعجاب ويسحر الألباب، وقد أشار القرآن الى انهم يفعلون ذلك للعبث وليس للاحتياج، وأنهم طغوا في الأرض وبطشوا بطش الجبارين، ولما ارتفع صوت نبيهم داعياً الى الله مؤكداً أن الايمان بالله وتقواه هما سر الحضارة وبقاء النعمة، فلقد أسكرتهم نشوة النعيم، وغمرتهم أمواج الترف، فصمموا على النصح وقالوا لنبيهم في صفاقة: ﴿قالوا سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين إن هذا الا خلق الأولين * وما نحن بمعذبين﴾[2].

فأهلكهم الله بريح صرصر عاتية، وأتى على حضارتهم من القواعد فجعلها حصيداً كأن لم تغن بالأمس، ولم يبق منها الا ما يبعث التأريخ، ويجدد الذكرى ويثير التأمل ويصبح عبرة للناس.

الايمان والعمل الصالح والأمن:

العقيدة الاسلامية تقوم على أن الايمان بالله أساس كل خلق كريم، وهو شهادة الانسان بأنه ذو عقل سليم، يميز الخير من الشر، ويفرق بين الطيب والخبيث، والحق والباطل، فهو بهذا العقل عرف

---

١ ـ سورة الشعراء. الآيات: ١٢٨ ـ ١٣٥.

٢ ـ سورة الشعراء. الآيات: ١٣٦ ـ ١٣٨.

الله فعبده، وعرف الأعمال الصالحة فسعى اليها.

أما من لم يفتح له عقله طريقاً الى الله فقد عمي عن الحقيقة الكبرى وضلَّ الطريق اليها، فكيف يمكن أن يهتدي الى حق بعد هذا، وكيف يتعرف على خير بعد أن حاد عن الطريق الموجه اليه؟

فالله تعالى يقول: ﴿مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شيء . .﴾[1].

والحقيقة التي يؤكدها القرآن أن موازين القيم والأخلاق مرتبطة بميزان الله، فالكفر ظلمة وضلال، والايمان نور وهداية، فلا اصلاح بغير عقيدة ولا تربية بغير ايمان ﴿. . ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور﴾[2].

وقد عجز لوط «عليه السلام» عن اجتثاث ما تمكن في نفوس قومه من منكرات لأن منشأها عقدة الكفر.

ويفيد التحليل النفسي للعادات السيئة التي تمكنت من أصحابها أنها تبطل وتزول بمجرد اقتلاع العقدة، مثلما يزول مفعول الخطر الكهربائي بانقطاع التيار.

ويُذكَر الايمان في القرآن متبوعاً بعمل الصالحات كنتيجة له لأن الايمان الصادق هو صاحب السلطان الأعلى على القلب وعلى

---

١ ـ سورة ابراهيم. الآية: ١٨.

٢ ـ سورة النور. الآية: ٤٠.

الارادة التي تحرك الأعضاء في الأعمال، فإن نازعه في سلطانه طائف من الهوى، فإنه لا يلبث أن يقهره.

﴿إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون﴾[1].

واذا لم يكن للإيمان أثر في أخلاق الانسان وسلوكه وصحته النفسية، فذلك دليل على أنه ضعيف أو مزيف، وصاحبه ممن يدّعون الايمان بالقول لا بالعمل، دون أن يدخل قلوبهم، ولا كان له سلطان على أرواحهم.. واذا قاموا بعبادات موروثة، فهي صورة بلا روح، لأنهم مشغولون عن الله وعن عظمته وجلاله.

﴿ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين﴾[2].

وقد واجه ابراهيم قومه المشركين بحجة الهمه الله اياها، وهي أن من يؤمن بالله ويخلص له لا يخاف من دونه، فهو أحق بالاطمئنان والأمن من الملحد والمشرك.

وأكدت بعض الدراسات التربوية والأبحاث النفسية أن الايمان بالله وقاية وعلاج من الأمراض النفسية، والاضطرابات العصبية والانحرافات الخلقية التي تنشأ من عوامل القلق والضياع والفراغ، وإن من أهم أسباب الأمراض العضوية الحالة العامة التي يسيطر عليها الجهاز العصبي والحالة النفسية، حتى أضحى العلاج

---

١ - سورة الأعراف. الآية: ٢٠١.

٢ - سورة البقرة. الآية: ٨.

النفسي عن طريق الايمان من وسائل الطب الحديث . . يقول وليم جيمس: (إن أعظم علاج للقلق النفسي والفراغ الروحي هو الايمان)[٣]، إذ لا شيء يستطيع أن يؤثر من الخارج تأثير الايمان من الداخل، فكل قوة تتلاشى أمام قوته.

وقد سئل رسول الله ﷺ عن علامة الايمان فقال: «إذا ساءتك سيئتك، وسرتك حسنتك فأنت مؤمن» رواه أحمد.

ومن هنا كان المؤمنون أشد صبراً وثباتاً في القتال من الجاحدين والملحدين، لأن صلتهم الالهية بالايمان هي خير ما يستمدون منه القوة والثبات في الحق والقدرة على مقاومة الصعاب، واقتحام الأخطار، والصبر على الأذى، واستعذاب الألم الجسمي والنفسي في سبيل الله إذ لا يثبت في الشدائد والمحن، ولا يقوى على مقاومة البغي والعدوان الاَّ من كان مؤمناً صادق الايمان بما يدعو اليه.

فإذا اتخذت الأمة الوسائل التي أمرت باتخاذها في قتال العدو، ودعت ربها أن يثبتها ويتم لها ما ليس في وسعها من أسباب النصر، فإن الله يستجيب لها لأن الايمان يُشعر صاحبه دوماً بأنه على الحق، ومن جاهد على حق لا يخذل.

ولعل اقتران الايمان بالأمن في القرآن المجيد باعتباره الشافي نتيجة أو جزاء للأول، يكشف عن الفرق عملياً في الحياة بين من يملأ قلبه الايمان وبين من يعيش في فراغ.

---

٣ ـ نقره، التهامي. سيكولوجية القصة في القرآن. تونس: ١٩٧٤م. ص: ٢٥١، ٢٥٢.

فهذه الخنساء لما قُتل أخواها معاوية وصخر في الجاهلية حزنت عليهما حزناً شديداً وأخذت ترثيهما وتبكي عليهما، ولا سيما على أخيها صخر حتى عميت . . ولما بُعث النبي (ﷺ) برسالة الاسلام وفدت عليه الخنساء مع قومها وأنشدته من شعرها وأسلمت بين يديه هي وقومها، وكان لها أربعة بنين، فلما سار العرب لفتح العراق جمعت بنيها وحضتهم على القتال ونصرة الاسلام، فخاضوا معركة القادسية واستشهدوا جميعاً، فلما جاءها النعي بمصرعهم لم تزد على أن قالت «الحمد لله الذي شرفني بقتلهم في سبيل الله، وأرجو أن يجمعني بهم في مستقر رحمته»[1].

وأشدَ الناس حيرة واضطراباً في الحياة غير المؤمنين، فهم في خوف دائم مما لا يُخيف، لأنهم يعلِّقون حياتهم وكل آمالهم وكل ما يجري عليهم بالظروف والمصادفات.

يقول جيمس في كتابه «الكون الغامض»:

(ونحن إذ نقف على أرضنا نحاول أن نكشف عن طبيعة الكون الذي يحيط بموطننا في الفضاء والزمن، وعن الغرض من وجوده نحس بما يشبه الذعر والهلع، وكيف لا يكون الكون مخيفاً ومرعباً وهذه أبعاده هائلة لا تستطيع عقولنا ادراك مداها، ويتضاءل الى جانبها تأريخ الانسان . .).

وأخوف ما فيه أنه لا يعني ـ كما يبدو ـ بحياة مثل حياتنا، كأن

---

١ ـ فروخ، عمر. تاريخ الأدب العربي. بيروت: ١٩٦٩م. ٣١٧/١.

عواطفنا ومطامعنا وأعمالنا وفنوننا وأديانناكلها غريبة عن نظامه وخطته، وقد يكون من الحق أن نقول: بينه وبين حياتنا عداء قوي .. هذا هو الكون الذي ألقت بنا فيه الظروف.

وإذا لم يكن ظهورنا حدث بسبب غلطة وقعت، فلا أقل من أن يكون نتيجة لما يصح أن يوصف بأنه مصادفة[1].

أما المؤمن فإنه يدرك ما بين الكون والانسان من صلات ووشائج ويحس يد الله في كل ما حوله، فلا يشعر بالخوف والضياع، ولكن بالطمأنينة والأنس الى هذا الكون البديع، وبالرهبة والجلال لخالقه المبدع، فيلتقي الفن بالعقيدة والمتعة الحسية بالمتعة الروحية، فالمؤمن يخاف الله وحده، ولا يخاف سواه من مخلوقاته وإن راعته عظمتها أو قوتها لأن التدبير والتقدير بيد الله وحده، ومما يزيده شعوراً بالأمن ما يجده من عناية الله به.

فلقد كرم ابن آدم بالذات، فحرم عليه الانحناء والسجود لغيره، وكرمه بالخلقة فمنحه صورة حسنة ليتقن عمله، ومنحه العقل أساس التمييز، وكرمه بالمسئولية فحملة الأمانة وكلفه بالمهام العظام، وسخر له ما في السموات وما في الأرض بالمعرفة والعلم، وكلاهما وسيلة لتحقيق هدف أسمى وهو الايمان، مصدر الوعي والتدبر والشعور.

فالبصر بلا وعي، والسمع بلا تدبر، والدين بلا شعور، أشياء

---

٢ ـ قطب، سيد. في ظلال القرآن. ١٤٨/٨.

لا قيمة لها ولا جدوى، كالعلم بدون ايمان ذلك أن ارتقاء الوسائل لا يغني عن ارتقاء الغايات.

العلم والايمان:

الاّ يرتكب بالعلم ـ في السلم والحرب ـ من الآثام والمخازي ما عجزت عنه القرون الأولى لقصور وسائلها؟

ثم أية حرب هذه التي تشنها العلمانية على الدين والايمان في حماقة؟

وكيف يستطيع العقل أن يتصور نشوء الحياة ونبضها من قوة متينة، ونشوء الابصار من قوة عمياء، ونشوء السمع من قوة صمّاء؟

إن فاقد الشيء لا يعطيه ـ كما يقال ـ فإذا كانت هذه النواميس التي تسيطر على المادة جامدة، لا تسمع ولا تبصر فكيف توهب لها الحياة والسمع والبصر؟.

فمثل هذه البدهيات ما كانت لتصبح محوراً للجدل والنقاش، لولا قانون التعليل وقانون السببية في دنيا العلم، وما حققه علماء المادة من اكتشافات عجيبة، واختراعات مدهشة، وقفت ببعض المغرورين منهم في طريق مسدود، في حين أن الأديان السماوية كلها جعلت لحياة الانسان معنى وجعلتها بحياة الكون في أوسع مداه.

إن العلم التجريبي الذي جعل لهم سلطاناً على قوى الطبيعة هو الذي حبسهم في سجن المادة، وصرفهم عن التأمل فيما وراءها وقطع صلتهم بأعماق وجودهم وسلبهم نعمة الايمان.

وأن حاجة الايمان الى المهارة والحنكة والعلم والذكاء لا يقل عن حاجته الى مجاهدة النفس وصفاء السريرة واستقامة السلوك، وطهارة القلب، وقد انتهى الأمر بالمجتمعات الاسلامية في العصور الخوالي الى نكوص عن العلم وتخلف عن موكبه، فانفصل عنه الدين وسار أهله في دروب الجهالة والخرافة حين زايلهم صفاء النظر ونور العقل.

والأمة التي لا تبقي حياتها وحضارتها على أساس من العلم والايمان أمة هزيلة، وقد حثنا القرآن في أكثر من آية على طلب العلم، وكل علم نافع للدين والدنيا هو في الاسلام فرض كفاية، إذا لم يوجد في الأمة من يتخصص فيه، ولا يعرف مثل هذا الأصل الاجتماعي في غير الاسلام، وما ارتقت الأمم الحديثة الا به، فإن لكل علم متخصصين ينقطعون له، وهم درجات في مدى تعمقهم وافتنانهم على مدار التأريخ الانساني.

فالاسلام يفرض على المسلمين جميعاً أن يسهموا في بناء صرح الحضارة الانسانية، بل أن يكون لهم دور طلائعي فيها، فلا يجوز لهم أن يكتموا عن غيرهم ما يتوصلون اليه من علوم، عملا بقوله (ﷺ): «من سئل عن علم فكتمه الجمه الله بلجام من نار يوم القيامة»، (أخرجه الترمذي).

ذلك أن العلم إن كان يهدف الى اصلاح البشر واسعاده، والرقي به مادياً وفكرياً وروحياً فلا مبرر لكتمانه واحتكاره، وإن كان يهدف الى تهيئة الوسائل التي تنفذ بها المآسي والجرائم بقصد السيطرة

والنفوذ وترويع المستضعفين من الشعوب واستغلالهم بمختلف طرق الاستبداد السياسي والضغط الاقتصادي والنيل من حرية هذه الشعوب وكرامتها، فذلك ما يفسر به اليوم تكتم المعسكرين في المجال التقني واسدال الستار عن الوسائل التي توصلاً بها، لا رغبة في التفوق وحسب، بل وتنافساً على مناطق النفوذ والاستيلاء.

إنهم يستغلون ثرواتنا الطبيعية وموادنا الأولية، ويحكمون الخطة كي نبقى تحت الحجر والتبعية، فلا نتعلم من التقنيات ما يمكننا من الاستغناء عنهم وعن صناعاتهم.

ولا أحسب أن ديناً سماوياً يمكن أن يلتقي بحال مع العلوم الحديثة على هذه الصورة في عالم الآلة المدمرة التي لا يمسك زمامها دين أو خلق، فديننا الحنيف ليس منافساً للعلم ولا بديلا عنه، بل هو يدعو الى انقاذه من عبث العلمانيين الذين عميت بصائرهم عن الحق فجعلوا من التقنية قيمة مطلقة، وسلاحاً فتاكاً يتحكمون به في مصير الشعوب ويمتلكون الرقاب ويتسلطون على الثروات.

وكلما قدم العلم أمثلة جديدة حية على أحكام نواميس الكون ودقة نظامه ازداد المؤمن ايماناً بعظمة الله وقدرته الباهرة.

ثم متى تعارض الاسلام مع العلم قديماً، حتى يتعارض معه حديثاً؟

ألم يكن الخوارزمي وابن الهيثم والبيروني وأمثالهم من أعلام الفكر الاسلامي الذين أرسوا دعائم العلم التجريبي مثال السمو الخلقي، والايمان العميق بمنشىء الحياة وخالق الأكوان؟

وقد أخذ المسلمون يدركون من جديد أن الايمان ليس مجرد تسلية لمن ظُلموا واضطهدوا وحرموا واستسلموا لليأس، بل هو يملك أن يقدم ما هو أكبر من ذلك للمؤمنين فيمنحهم الرشاد والاطمئنان ويحملهم على الأخذ بأسباب القوة المادية والروحية، فلا يخذلها الجهل والفقر والتخلف العلمي، ولا يطمس نورها بريق المادة، لأن الايمان بغير قوة مادية تحميه يبقى فكرة جميلة، وفلسفة محضة ربما انقلب الناس ضدها وتحولوا عنها.

ولولا هذه القوة المادية التي أنشأها العلم لما بقيت كلمة الله ولذهبت معالم هدايته.

والميزان الصحيح الذي تُعرف به مقومات الايمان ومدى تأثيرها في تكوين شخصية المسلم في أوضاعها وأحوالها وأخلاقها وأعمالها وتصوراتها للقيم السائدة، يتمثل في خاصية (الربانية) التي هي من صنع الله، وليست من صنع فكر الانسان، فيستقيم على منهجها ويرجع اليها ـ دوماً ـ في كل ما يعن له من مشاعر وأفكار ومواقف في مجرى حياته، ليعرف الحق من الباطل، والصحيح من الزائف.

ثم إن هذا التصور النابع من مصدر الهي هو موافق للفطرة الانسانية الملبي لكل جوانب الانسان المحقق لكل حاجاته، وهو التصور الذي يقوم عليه أقوم منهج للحياة وأشمله وأكثره توازناً واعتدالا.

دور الايمان في بناء الفرد:

لقد واجه العالم الاسلامي حركات تجديدية واصلاحية على امتداد العصور، واصلاح المجددين المسلمين يؤخذ بمقدار ما ينجحون في التوفيق بين الايمان والأعمال اليومية في واقعنا المعاش، بين المطلق الخالد، والمطالب الحياتية المتجددة بين النشاط الفكري الانساني ومكتسبات الحضارة المعاصرة، وأخلاقية الاسلام في السلوك والعبادات والمعاملات والعلاقات العامة.

إن في التصور الفريد الذي يكونه الاسلام عن الشخص مكاناً متميزاً بالتوازن والجهد المستمر لبلوغه حتى يجمع المسلم بين خير الدنيا وخير الآخرة، فالانسان على نفسه بصيرة، ولكنه لا يخرج عن مشيئة الله العليا، وفي طبيعته المزدوجة عطش روحي، وتوق الى الكمال فطبيعته الجوهرية أبدية وخلود، وطبيعته الدنيوية حدوث متناهي الوجود، وعلى هذا الأساس فإنه لن ينجح أي اصلاح باطني يتحدى كل عائق خارجي، وذلك تأثير الايمان على الذات، وللمنهج التربوي الاسلامي مسالك عديدة تلتقي كلها عند نقطة واحدة وهي الايمان الذي يكون الشخصية المتزنة التي تعمل جميع طاقاتها المادية والفكرية والروحية في اعتدال وتوازن، وتلك هي الشخصية المتكاملة كما يسميها علماء التربية وهي التي يتسم سلوكها وتصرفاتها ودوافعها بالاتزان الانفعالي[1].

---

١ - فهمي، مصطفى. الصحة النفسية. القاهرة: ١٩٥٥م. ص: ٢٨١.

فالشخص المتكامل من يدرك النواحي المختلفة التي تواجهه، ثم يربط بين هذه النواحي وما لديه من خبرة تصلح لتكييف الاستجابة تكييفاً ملائماً، وأهم القدرات التي تساعد على تحقيق التكامل، القدرة على التمييز والقدرة على الكف الارادي وضبط النفس.

ألم يكن يوسف (عليه السلام) في حكمة تصرفاته، ورشاد مواقفه وهو في خضم المآزق والمغريات التي تتيه فيها العقول، مثال الشخصية المستقيمة المتكاملة التي بقيت على مدار التأريخ عنوان العفة مع الجمال، والاستقامة مع الحصانة، والمرونة مع الحزم؟

وبناء شخصية المسلم تبدأ من طفولته الأولى في الأسرة ثم في المدرسة والمجتمع، ولا ينكر أحد أثر البيئة في تربية الطفل باعتبار قابليته للخير والشر، ويرى الغزالي وجوب صيانة الطفل مما يضره في الدنيا والآخرة كقرناء السوء، والعابثين في الطرق والمدللين من الأطفال ومكافأته على كل خلق جميل، أو فعل حميد يظهر منه مع الاقتصاد في لومه وتعنيفه عند وقوع الذنب، والتدرج معه في ترك الأخلاق السيئة إذا صعب تركها مرة واحدة، حتى يتجنب الرذيلة ويتحلى بالفضيلة عن رغبة واقتناع، ويخاف الله في السر والعلانية بحيث يتعلم أدب الدنيا ليعيش عزيزاً وأدب الدين ليكون متصلا بالله في كل حين.

وقد نادى المربون المسلمون بالرفق في تربية الأطفال وعلاج

أخطائهم برحمة، وحذروا من أساليب الشدة والقسوة حين كان الجلد منتشراً والعقاب القاسي شائعاً وعدوا ذلك قاتلا للهمم مؤدياً الى الذل والكذب والخداع والجبن، يروى عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أنه دخل عليه أحد ولاته فوجده مستلقياً وصبيانه يلعبون حوله، فأنكر عليه سكوته، فسأله كيف أنت مع أهلك؟ فأجاب؛ إذا دخلت سكت الناطق، فقال له عمر: اعتزل عملنا، فانك لا ترفق بأهلك وولدك، فكيف ترفق بأمة محمد (ﷺ)[1]، وعلى المربي معلماً كان أو أباً أن يكون على بينة بخصائص مرحلة المراهقة وما يصاحبها من مشكلات انفعالية، باعتبارها أحرج المراحل في التربية وأخطرها.

إن أهم مشكلات المراهق الانفعالية ترجع أساساً الى عدم قدرته على التلاؤم مع البيئة التي يعيش فيها، سواء أكان ذلك على مستوى الأسرة أم المجتمع.

فمن شب في أسرة على العمل بتعاليم الاسلام وحب التدين ثم اصطدم بما ينافي ذلك في المجتمع، فقد اختلت عملية التوافق والتلاؤم عنده لاختلاف المعايير وحرم من التمتع بحياة خالية من القلق والتأزم والاضطرابات، وفقد صحته النفسية التي تعني: التكيف والتوافق النفسي وتقبل الفرد لذاته، وتقبل الآخرين له.

ولاشك أن شعور المرء بالسعادة وبالراحة النفسية ركن أساسي في بناء الشخصية وتماسكها ووحدتها.

---

١ ـ الأبراشي، محمد عطية. التربية الاسلامية وفلاسفتها. مصر: ١٩٧٥م. ص: ٣٧.

والتكيف في علم النفس هو: تسلك العملية الديناميكية المستمرة التي يهدف بها الشخص الى أن يغير سلوكه ليحدث علاقة أكثر توافقاً فيما بينه وبين البيئة التي تشمل كل المؤثرات وفي مقدمتها العقيدة.

لكن إذا تغربت تلك البيئة الاسلامية وتخلت تحت ضغوط التأثير المتنوع عن مقوماتها الذاتية، وتاهت في بيداء الأهواء والضلالات وأضحى الدين عندها في بطون الكتب وعلى رفوف المتاحف تشكل سلوك الشاب على مقتضى تلك البيئة.

ومن هناك وجب الاهتمام بالروح الديني الذي يسود حياة الأسرة على أساس أنها الخلية الأساسية للمجتمع فصلاح الوالدين وقيامهما بفرائض الدين وابتعادهما عن المنكرات والآثام والتزامهما حدود الفضيلة والأدب له تأثيره بالقدوة على سلوك الناشئة.

وقد مدح الله اسماعيل «عليه السلام» بأنه كان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضياً، فخير ضمان لتوفير الصحة النفسية للشباب هذه التربية الاسلامية التي عمادها الايمان بما يجب على المسلم أن يؤمن به، حتى لا يخلطوا بين ما نطلبه منهم من الاستفادة بعلوم الغير وصناعاته، وما نحذرهم منه من تقليد الغير في مظاهره وثقافته الخاصة به وطابعه المميز له، وحتى يعلموا علم اليقين أن لأمتهم ديناً يغنيها عن كل عقيدة ويقودها الى الرقي والمجد والتمكين في الأرض، ولا يحول بينها وبين الأخذ بكل ما ينفع من

ثمرات العقول وجهود الشعوب ولباب الحضارة، ولنبصرهم بأن التطور النافع لا يقوم على أنقاض التراث الأصيل كما يقول الشاعر:

وما أضاع تراثاً من أبويه لم يستفد من سواها قدر ما فقدا[1]

وما أروع ما قاله عمر لأبي عبيدة بن الجراح «إنكم كنتم أذل الناس وأحقر الناس وأقلهم، فأعزكم الله بالاسلام، فمهما تطلبوا العز بغيره يذلكم الله».

ومن تتبع تأريخ الحضارة الاسلامية في منجزاتها الكبيرة طوال العصور يؤمن بأن الازدهار العربي في عصوره الذهبية قام على الايمان والدين، وشبابنا اليوم في أشد الحاجة الى احياء ديني يعدهم لدورهم في هذا الصراع، ويبني نفوسهم ويحفظ المقومات الأساسية لشخصيتهم، ويُقوّم معوجهم من الانحراف والانقياد الى ما يفد الينا عن طرق الاعلام من مذاهب واتجاهات تحمل في طياتها بذور الاستهتار بالقيم والمقومات التي يقوم عليها الايمان، وقد علمنا الرسول (ﷺ) كيف نبني شخصيتنا المستقلة ولا نكون تابعين لغيرنا ولا أسرى لمذاهب هدامة فقال:

«لا يكن أحدكم إمعة، يقول: إن أحسن الناس أحسنت وإن أساءوا أسأت، ولكن وطّنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا وإن أساءوا أن تجتنبوا اساءتهم».

---

١ ـ محفوظ، محمد جمال الدين. تربية المراهق في المدرسة الاسلامية. مصر: ١٩٧٧م. ص: ٢٠٥.